وخلاصة القول إنه لا يمكن الفصل بين الثقافة والحضارة أو إقامة أى تعارض بينهما فإنهما متداخلان دون أن يصلا إلى حد التساوى ، وهما متمايزان دون أن يصل بهما هذا التمايز إلى درجة التباعد»[1] .

فنحن من جهة لا يمكن أن نساوى بين الحضارة والثقافة ومن جهة أخرى لا نصل إلى الحد الذى يجعل من الثقافة شيئاً ومن الحضارة شيئاً آخر وبالتالى فإن «الحضارة يمكن أن تكون قومية لأن الثقافة تتجلَّى لنا مرتبطة بالنظام المجتمعى والسياسى»[2] .

ولذا كانت الثقافة وحدة صغيرة داخل بناء الحضارة ، فالحضارة تحوى فى داخلها الثقافة والمدنية والعمران، وعندما تصل جماعة ما إلى أقصى درجة من هذه الأمور الثلاثة فقد بلغت الحضارة بأكملها.

## ثالثاً : العلاقة بين الحضارة واللغة

عرَّف ابن جنى اللغة بأنها : أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[3] .

ويتضح لنا من هذا التعريف أن للغة وظيفة اجتماعية تتمثل فى التعبير عما يعتمل فى نفس الأفراد، وأن لها إطاراً اجتماعياً ، ومن ثَمَّ فهى تختلف باختلاف الجماعات الإنسانية ، «وعلى هذا فوجود اللغة يشترط وجود المجتمع ، ومن هنا يتضح لنا الطابع الاجتماعى للغة ، فليس هناك نظام لغوى يمكن أن يوجد منفصلاً عن جماعة إنسانية تستخدمه وتتعامل به ، فاللغة ليست هدفاً فى ذاتها وإنما هى وسيلة للتواصل بين أفراد الجماعة الإنسانية»[4] .

واللغة نسق دقيق من العلاقات يعقده أفراد المجتمع بين بعضهم البعض ، وبينهم وبين البيئة التى تحيط بهم . وبحكم هذه العلاقة أصبح للغة تأثير بالغ فى مناحى الحياة .

وأمَّا عن العلاقة بين اللغة والحضارة فهى علاقة بناء وتحديد ، بمعنى أنَّ اللغة تحدد الحضارة كما أنها فى الوقت نفسه تتحدد بها ، فاللغة تحدد الحضارة باعتبار علاقتها بالحقائق الحضارية التى تكوِّن معها مجموع الحضارة ، وهى فى الوقت عينه قيد للحضارة ومفتاح لها وكانت لهذا السبب نموذجاً

(١) من المنغلق إلى المنفتح ، محمد عزيز الحبابى ، ترجمة محمد برادة ، ط الثانية ، الأنجلو المصرية ١٩٧٣ م ، ص ٣١ .

(٢) السابق ، ص ٣١ .

(٣) الخصائص ، تحقيق محمد على النجار ، الهيئة العامة للكتاب ، ط الثالثة ، ١٩٨٦ م ، جـ ١/ ٣٤ .

(٤) مدخل إلى علم اللغة ، د. محمود حجازى ، دار الثقافة ، ط الثانية ، ١٩٧٨ ، ص ٩

نظرياً لدراستها من قبل علماء الأنثروبولوجى ، وأكدوا من خلال هذه الدراسة أنَّ العلاقة بين اللغة والحضارة علاقة سببية ، أو علاقة تأثير وتأثر

ولقد ربط مالينوفسكى بين اللغة والمجتمع فى دراسته لبعض المجتمعات البدائية وتوصل إلى أنَّ . وظيفة اللغة ليست أنَّها وسيلة للتفاهم ، أو للتوصل بل وظيفة اللغة أنها حلقة فى سلسلة النشاط الإنسانى المنتظم ، هى أنها جزء من السلوك الإنسانى ، إنها ضرب من العمل وليست أداة عاكسة للفكر[١] .

وإن العامل الحضارى عامل فعَّال فى حياة اللغة وانتشارها ، والواقع أن : «الفيصل فى قيمة اللغة هو تراثها وما تحمله من حضارة وعلم يفيد الحاضر ويبنى المستقبل»[٢] ، وذلك لأن الحضارة هى مجموع التركة التى يرثها جيل عن جيل فى مجتمع ما من تقاليد وعادات ونظم معيشة ودين وفن وهلم جراً، ويقول فندريس : إنه فى أحضان المجتمع تكونت اللغة - وهى الحقيقة الاجتماعية بأوفى المعانى - تنتج من الاحتكاكات الاجتماعية ، وتنشب جذورها فى أقصى أعماق الشعور الفردى ، ومن هنا تستمد قوتها لتتفتح على شفاه بنى الإنسان ، فاللغة إذن عامل من عوامل المجتمع وليست من منتجاته»[٣] .

واللغة فى الغالب مفتاح لسلوك الجماعة ، تسمح بالتنبؤ بمشكلة رد فعل الجماعة تجاه المواقف المتنوعة «وحينما ننتقل من الحضارات المتخلفة إلى الحضارات المتقدمة يصبح العامل اللغوى فى الحضارة أكثر أهمية مادامت اللغة تقوم بدور الأداة أو - الواسطة الثقافية»[٤] ، ومن أجل ذلك يرى اللغويون أن اللغة من أعجب المبتكرات التى أظهرها التطور البشرى ، ولذا أوجبوا الوقوف عندها ، بل وإطالة الوقوف لكى نرى الدور الذى تؤديه على وجه الدقة ، والنصيب الذى تقوم به فى التطور العقلى ، ثم أوجبوا معرفة ماهى الصلات بين الفرد والجماعة فيما يختص بإنتاج هذه الأداة القيمة وذلك لإكمال ما فيها من نقص على مر الأزمنة ، «فاليد واللغة فيهما تنحصر البشرية»[٥] .

ولا يمكننا أن نفهم وظيفة اللغة إلا إذا نظرنا إليها باعتبارها حقيقة ماثلة فى المجتمع ، ولن تقوم له قائمة إلا بها ، فاختفاء اللغة فى المجتمع يعنى اختفاء سبل التعبير عن الأفكار والخواطر بل لن نستبعد فقدان القدرة على التفكير نهائياً فى ظل غياب اللغة . فبغير اللغة لن ينمو السلوك والعادات

(١) اللغة والمجتمع ، رأى ومنهج ، د. محمود السعران ، المطبعة الأهلية ، ١٩٥٨ م ، ص ٧ .
(٢) اللغة العربية عبر القرون ، د. محمود حجازى ، دار الثقافة ، ص ١٣ .
(٣) اللغة ، فندريس ، ت عبد الحميد الدواخلى ود محمد القصاص ، ط الأنجلو المصرية ١٩٥٠ م ، ص ١ .
(٤) أسس علم اللغة ، ماريوباى ، ت أحمد مختار عمر ، منشورات جامعة طرابلس ، ط ١٩٧٣ م ، ص ٢٠٦ .
(٥) اللغة ، فندريس ، ص ١ .

التى من شأنها خلق الحضاره وبفضل اللغة اشترك الإنسان مع أقرانه فى التجارب والأفكار ، واستطاع أن يجسم تجاربه الشخصية لنفعهم .

ولو أردنا أن نتبين مدى العلاقة بين اللغة والمجتمع - الذى هو كيان الحضارة - فإننا سوف نجد أن للمجتمع دوراً كبيراً فى خلق اللغة من أصوات وتراكيب متفق عليها «فاللغات تصدر دائماً عن الجماعات ، والفرد يكتسب لغته من الجماعة التى يحيا وسطها»[1]

والوظيفة الأساسية للغات فى مجتمعات البشر هى تحقيق الاتصال بين الأفراد والتعاون بينهم والتنسيق بين جهودهم ، وعلى هذا النحو تتعاون جماعات الأفراد معاً لتكوّن سلمها الحضارى .

ولقد عبر المفكر الفرنسى البيرسويل عن أهمية اللغة فى المجتمع بعبارة بليغة على غرار قول ديكارت الشهير . فقال : أنا أتكلم إذن أنا موجود[2]

وفى عهد من عهود الحضارة التى اجتزناها منذ أجيال كان عمل اللغة فى الحياة العامة محدوداً نسبياً لأن أداة الحكم فى ذلك العهد تتمثل فى السوط ، ولغة السوط مما يفهمه الناس دون حاجة إلى وساطة ، ولكن الأمور تغيرت الآن فصار كل شىء يرتبط باللغة ، وأصبح حرمان شعب من حق استعمال لغته أسوأ ما تتعرض له الشعوب من عسف وظلم وذلة ومهانة ، إن لم يكن فى هذا القضاء المبرم على هذا الشعب»[3] .

وحين نتحدث عن اللغة وصياغاتها الحضارية فلابد أن يكون واضحاً أن الألفاظ فى ذاتها ليست هى التى تُحدِث الأثر أو تحرك الموقف ولكن «ما تثيره هذه الألفاظ من التصورات الذهنية لدى الأفراد»[4] .

واللغة هى أقوى الأدلة عند استقصاء الملامح الخاصة لمجتمع ما من المجتمعات ، ويكفينا أن نقرأ قوله تعالى . ﴿ ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ [المائدة ١٠٣] حتى نبدأ فى فهم العادات العربية المتعلقة بهذه الكلمات ، فاللغة إذن من العوامل التى تتميز بها المجتمعات ، بل من العوامل التى تهب كل مجتمع خصائصه المميزة ، ففى كل مجتمع مهما كانت طبيعته وحجمه تلعب اللغة دوراً ذا أهمية أساسية إذ هى أقوى الروابط بين أعضاء هذا المجتمع ، وهى - فى الوقت نفسه - رمز إلى حياتهم المشتركة وضمان لها ، «على أن خطر اللغة فى حياة الفرد لا يقل عن خطرها فى

(١) اللغة والمجتمع ، د ثريا عبد الله ، دار المعارف ١٩٧٧ ، ص ١١

(٢) اللغة والمجتمع ، د. ثريا عبد الله ، ص ٥١ .

(٣) اللغة بين القومية والعالمية ، د إبراهيم أنيس ، دار المعارف ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٧ .

(٤) اللغة والحضارة د. مصطفى مندور ، منشأة دار المعارف ، الإسكندرية ١٩٧٤ م ، ص ١٥١ .

حيـاة المجتمع إذ هى الأداة الوحيـدة التى تمكّن الفرد من الدخول فى نـطاق المجتمع الذى يعيش فـيه ولولا اللغة لظل الفرد حبيس العزلة الاجتماعية ، غير عالم بكل ما يجرى حوله من الأحداث الفردية والاجتماعية»[١] .

على أننا يجب أن نضع فى الحسبان التطور اللغـوى ، «فالتطور اللغوى الذى يعرض للغة يتناول مادتهـا أى مجامـيعهـا الصوتيـة ، وأقصد بذلك الألفـاظ وكيف يتهـيأ لألفاظ أن تبـقى وتتطور فى الاستعمال، كـما تقضى عوامل أخرى على أن تندثر ألفاظ كثيرة ، ثم إن هـذا التطور يعرض لطبيعة الأصوات وصفاتها»[٢] .

ومرد ذلك كله إلى العلاقة الوثيقة القائمة بين الـتطورين اللغوى والحضارى ، فالعلاقة بين اللغة والحضارة علاقة اطرادية ، فالحضارة لا تعـدو أن تكون جماع ما تواضع عليه الناس من أمور وأحوال ومفاهيم ورثوها عن آبائـهم وأسلافهم أو ولّدوها استجـابة لحاجة من حاجات العـصر ، وجملة هذا الموروث أو المولّد يؤلف نظاماً حضارياً يبدو جلياً فى سلوك الفرد أو الجماعات ، واللغة الحضارية هى تلك اللغة التى سلخت من عمـرها أحقاباً طويلة فكانت مرآة لأدب قويم عالٍ وفكـر ثاقب متفاعل ، وهذا يعنى فى المنطق اللغوى أن تشـتمل على ألفاظ كـثيرة شاملة لمدلولات كـثيرة تعبـر عن حاجات مختلفة عرضت للناس فى مختلف العصور»[٣] .

فاللغة إذن عامل مهم للترابط بين جيل وجيل ، وانتقال الحضارة عبر العصور لا يمكن أن يتم إلا عن طريق اللغة ، بل إن تاريخ اللغة مرآة ينعكس عليها تاريخ الحضارات الإنسانية ، فهى -أى اللغة- تواكب الحضارة فى مـسيرتها عبر القـرون وتتلاءم وحاجات المتكلمين ، فصفـات أى لغة من اللغات «تظل مسـتمـرة باستمـرار أهلها بنفس نمط حـياتهم وعادتهـم ، وتظل مفردات اللغـة التى خلّفتـها احتياجات الحياة خاضعة لتلك الحياة لتلبى رغباتها المتنوعة والتى لا تنتهى إلا بانتهاء الحياة نفسها .

وفى مجال حـديثنا عن اللغة العربية نرى أنها عـاشت وتطورت بنيتها فى تفاعل دائم مع طبـيعة العلاقات الاجـتماعية والحضـارية والدينية ، التى سادت فى المجتمع عـبر التاريخ[٤] . فاللغة ظاهرة اجتـماعيـة حضارية ، ودراسة الألـفاظ ودلالاتها على نحـو دقيق لا تتم إلا فى إطارها الاجتـماعى والحضارى والتغـير اللغوى لا يفسر تفسيـراً كاملاً إلا فى ضوء الظروف الحضارية والاجتـماعية وإلى جانب هذا تؤثر المواقف الاجتـماعية من مستويات اللـغة فى مكانة هذه المستويات وتحدد مسـار التغير

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية ، د. تمام حسان ، الأنجلو المصرية ١٩٥٨ ، ص ٧ .
(٢) اللغة والحضارة ، د. إبراهيم السامرائى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ١٩٧٧ م ، ص ٧ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٨ .
(٤) علم اللغة العربية ، د. محمود حجازى ، دار الثقافة ، ص ٣١٦ .

فيهـا، وهناك قضايا لغوية كـثيرة لا يمكن اتضاح معـالمها الكاملة إلا بالتعاون بين الـدراسات اللغوية والاجتماعية والحضارية[١] .

وقد قالوا إن اللغـة منظمة عرفية للرمز إلى نشـاط المجتمع[٢] ، وهى أساس لكل أنواع النشاط الثقـافى للاهتداء إلى معـالم المجتمعـات ، وهى وثيقة الصلة بين الإنسـان وبيئتـه وجزء من السلوك الإنسانى[٣] ، وتتأثر بحضارة الأمة وعـقائدها واتجاهاتها العقلية ودرجة ثقافتـها ، ونظرتها إلى الحياة وشئونها الاجتماعية العامة ، فكل تطور يحدث فى ناحية من هذه النواحى يتردد صداه فى أداة التعبير ولذلك تعد اللغة أصدق سجل لتاريخ الشعوب .

وكلما اتسعت حضارة الأمة وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ، وارتقى تفكيرها وتهذبت اتجاهاتها النفسيـة نهضت لغتهـا وسمت أساليبهـا، وتعددت فيها فنون القـول، ورقت معانى مفـرداتها القديمة، ودخلت فيها مـفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقـتباس للتعبير عـن المسميات والأفكار الجديدة[٤] .

وخلاصة القول إن اللغة هى لسان الحضارة المعبـر عنها فى شتى مناحى الحياة ، ولا يُتصور قيام حضارة بغير اللغة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها ، د. تمام حسان ، الهيئة العامة للكتاب ، ط ١٩٧٦ ، ص ٣٤ .

(٣) اللغة والمجتمع ، د. محمود السعران ، المطبعة الأهلية ، بنغازى ، ١٩٥٨ ، ص ٣٩ .

(٤) اللغة والمجتمع ، د. على عبد الواحد وافى ، ط نهضة مصر ، ص ٩ .